مُحَاورةٌ نِسَائيّةٌ للتّاريخ:
قِرَاءةٌ في الأَدْوَارِ النِّضَاليّةِ النِّسَائيّةِ من مَنْظُورٍ مُغَايِر

نسرين عواد

مُناكفة تأريخية

«**امتلاك الأشياء سابق على وجود الكلمات**»! لا شك في أن الكاتب الفرنسي **ديدور** بتأكيده على أن الحياة هي مجرد **حالات متواصلة من سوء الفهم**، قد اختصر علينا الكثير من الجهد في صياغة المبررات المضادة. لذلك، ففي إحدى المرات التي كنت أحاول فيها الاطلاع على أحد مناهج التاريخ المدرسية؛ بهدف بناء شكل جديد لقراءة مختلفة، حاولت أن أجد إجابة عن سؤال طرأ على ذهني في تلك اللحظة -أسميته فيما بعد السؤال الأصعب- فقد تساءلت حينها: يبدو أن المجتمع الذي يقوم الكتاب على تأريخ هذه الفترة الزمنية من مسيرته؛ لم يتكون حينها إلا من الذكور، وبالتالي ما الذي سيحصل لو تطلب الموضوع إعادة كتابة التاريخ ليس من منظور مختلف ومعاكس فحسب، بل برؤية جديدة أيضاً؟ زاوية تأريخ ترى النساء في ذلك المجتمع جزءاً أساسياً وثابتاً، ولنا أن نتساءل حينها: ما الذي سيكتبه التاريخ؟ وهل ستجد هذه الحركة الجديدة المادة التاريخية الكافية والمجدية لصناعة تأريخ خاص بهذه المجتمعات؟

قد يبدو هذا السؤال للوهلة الأولى محرجاً، وغير منطقي للوهلة الثانية، وكلتا الوهلتين لا تنفي متعة الاستغراق فيه؛ ومحاولة إيجاد مخرج -وليس جواباً- من المأزق الذي يضعنا فيه.

من هنا جاءت فكرة هذه الورقة مباغتة ومفاجئة، عندما أدركنا حاجتنا لكتابة ورقة تتطرق إلى الدور النضالي للمرأة الفلسطينية في تاريخ قضيتها الوطنية، فقد أدركت حينها أن المرأة الفلسطينية؛ كما باقي نساء الدول التي خضعت للاستعمار في إحدى فتراتها التاريخية، ومن ثم انتقلت إلى الثورة، وما يليها من تحرر- مع استثناء قضيتنا الفلسطينية من هذا التسلسل- ليست بحاجة إلى ورقة جديدة تثبت من خلالها الدور النضالي والثوري الذي قامت به -ولا تزال- على مر تاريخ قضيتها الوطنية، بل هي بحاجة إلى رؤية جديدة تعيد أشكلة عملية كتابة التاريخ وصناعته من منظور مغاير، عبر قراءة جديدة في الظروف الاجتماعية التي أدت إلى خلق تلك الصورة المهشمة لدور المرأة المرتبطة دوماً بجزر ثابتة، في عالم لا يتحرك فيه سوى الرجال، فالمرأة الفلسطينية هي مجرد أمّ، أو زوجة، أو أخت، . . . أدوار اجتماعية فقدت جوهر الإحساس بها، تنتظر في البيت الرجل المناضل والثوري والمقاتل والبطل والشهيد والقائد، فالمرأة الفلسطينية في المعادلة التاريخية ليست إلا قيمة ثابتة، مقابل القيمة المتغيرة والمؤثرة المتمثلة بالرجل.

ستحاول هذه الورقة، المساهمة في تأسيس موقع تاريخي جديد للنساء الفلسطينيات؛ عبر التأكيد بأن تجارب النساء لها تاريخ أيضاً؛ على الرغم من قناعتنا بأن هذا التاريخ لم يكن مستقلاً عن تاريخ الرجال؛ ولكنه قائم بذاته. ومن أجل هذه الرؤية الجديدة، نحتاج إلى عملية تغيير جذرية لتراتبية المهم وغير المهم في عملية صناعة التاريخ، فالتاريخ الذي تعيشه النساء -قد لا يكون بوتيرة التاريخ المعاش للرجال نفسها- وقد يتطلب آلية إدراك جديدة ومغايرة، ولكنه يتميز بالقدر نفسه من الغنى والزخم لصناعة مادة تاريخية مغايرة؛ مادتها نتاج تلك الرؤية المكتملة والمتكاملة لتناغمية الأدوار الاجتماعية لأفراد المجتمع، بحيث تمكننا من خلال الالتفات إليها إلى إعادة النظر باتجاه النساء على أنهن لسن مجرد ملحق تاريخي، ما سيتطلب إعادة جذرية لعملية كتابة التاريخ، وبخاصة في هذه المرحلة الحاسمة التي يمر بها المجتمع الفلسطيني؛ من عملية تشكيل وبناء لهويته وذاكرته الجماعية، وما تمثله الذاكرة الجماعية من تأثير في تكوين هذه الهوية، وما يؤديه غياب المعلومات عن تاريخ المرأة من اختلال في توازن هذه الذاكرة، وما يتبعه من تشويه لها؛ وكذلك هو الحال مع التاريخ النضالي، ما سيتطلب إعادة كتابة التاريخ بشكل يجعل النساء فيه موضوعاً أساسياً، لإعادة إنتاج ذلك الانسجام والتناغم في الذاكرة الجماعية، وشكل الهوية التي سيتم إنتاجها تبعاً لذلك.

لطالما لم تستهوني تلك الآليات والوسائل والتوجهات التي أفرزتها مرحلة طويلة من الصراع المرير؛ الذي خاضته المرأة عبر تشكيل الحركات النسائية؛ في محاولة منها للتصدي للقيم الذكورية كافة، التي أنتجت بدورها مجتمعاً ذكورياً بامتياز، لا مكان للمرأة فيه، والسبب لا يتعلق بفكرة المشاعر والأحاسيس فحسب -على الرغم من كونها كافية لأن تكون سبباً منطقياً ووحيداً لاتخاذ موقف ما- ولكن هذا القلق تبلور من قناعة ترى أن: مجرد محاولة النقاش وإثبات البديهي، والخوض في مساحة لا تحتمل الجدل، هو اعتداء على البديهية والثبوتية بحد ذاتها، وليس تأكيداً لها، فالاتجاه السائد والمتبنى لدى الحركات النسائية هو: المطالبة بحقوق المرأة لإنسانيتها، فلا يجوز قتل المرأة على خلفية الشرف أو غيرها لأنها إنسان، كما يجب إعطاء المرأة حق التعلم، واتخاذ القرار، والحرية . . . الخ، فإنسانية المرأة تحولت إلى

مثار جدل، وكأننا بحاجة إلى من يؤكد ويثبت أن المرأة إنسان، وفي حال إثبات هذه الفرضية؛ ستتأهل المرأة لتستعيد حقوقها المسلوبة كافة من المجتمع الذكوري الذي تحيا فيه، وهنا تغيرت المعطيات كافة؛ فإنسانية المرأة تحولت إلى مجرد فرضية تحمل في طياتها دلائل الإثبات أو النفي، وهي مساحة مفتوحة للنقاش والحوار والجدل، وكذلك الإثبات والنفي، كأي فرضية أخرى، وليس هذا فحسب، بل إن حقوقها أصبحت حقوقاً ممنوحة وليست مكتسبة، فما تطالب به الحركات النسوية هو إعطاء المرأة حقوقها، وما نجهله أن هذه المطالبة تحمل تأكيداً ضمنياً على أن الرجل والمجتمع الذكوري هما المالكان لهذه الحقوق، وهما من يستطيعان منح هذه الحقوق أو منعها، من هنا جاءت خطورة هذه التوجهات التي لم تعنِ أن دلائل الإثبات هي التي ستنتج دلائل النفي أيضاً.

وبالتالي، فإن الآلية التي اتبعتها المرأة وسيلةً لاستعادة التأريخ الغائب لأدوارها كفرد في المجتمع، ما هي إلا آلية ذات هوية ذكورية، فرضتها عليها السلطة الذكورية للمجتمع الذي تحيا فيه، وغالباً ما كرست هذه التوجهات النظرة الدونية للمرأة، وعززت تهميش التأريخ والتاريخ لها ولأدوارها المختلفة، عبر تكاثر المواد المكتوبة التي تسعى جاهدة في مادتها إلى الإثبات بأن المرأة في التاريخ النضالي قد مارست دوراً ما، ما يحيل المرأة ودورها النضالي -كما باقي أدوارها الاجتماعية- إلى مجرد فرضية تحمل في طياتها دلائل الإثبات والنفي، وبما ينسجم مع هذه الرؤية، نرى أن خاتمة هذه المواد المكتوبة تحفل بكلمات وعبارات الشكر والتقدير والإشادة بالدور النضالي الاستثنائي «غير المتوقع» للمرأة.

فالخطورة تكمن في أن هذه الدراسات والتوجهات كرست وعززت الرؤية الذكورية المسبقة عن أدوار المرأة الاجتماعية كافة، وذلك في محاولة إثبات هذا الدور النضالي المفترض، وتقدير المرأة على ذلك الدور غير المتوقع وغير البديهي. لذلك، نرى أعمالاً مختلفة في الشكل والمضمون تشيد بالمرأة ودورها النضالي، ولكننا في المقابل لا نرى تلك الإشادة بالدور النضالي للرجل، ما يؤكد رؤيتنا ووعينا لبديهية الدور الذي يقوم به وعبثية إثباته أو حتى تأكيده، كما يعكس رؤيتنا المقابلة والمعاكسة للمرأة ودورها النضالي كما باقي أدوارها.

هذا التوجه ساهم في تعزيز ما يلي:

- التأكيد على أن الدور النضالي للمرأة هو دور خارج عما هو متوقع منها القيام به في المخيلة الاجتماعية.
- تكريس السلطة الذكورية على المجتمع والعملية التاريخية بأكملها.
- الحفاظ على التأريخ غير المتوازن للعلاقات السلطوية بين أفراد المجتمع.

لهذه الأسباب، فإن هذه الورقة تركز على ضرورة إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر أكثر توازناً وشمولية، وذلك كضرورة ملحة لملء الفراغ الذي تركه نقص المعلومات الواضحة عن النساء، في عمليات التأريخ السائدة، التي لطالما كرست تهميش المرأة في مجتمعاتها، ولإعادة إنعاش التاريخ وتبيان ديناميات وتناقضاته وفتحه على قراءاته المتعددة.

إرغامات مُغايرة

«يجب أن نقيد أنفسنا بإرغامات؛ لكي نبدع بحرية»

يبدو أن ما تحتاجه المرأة ضمن هذه الإشكالية، محاولة لإعادة قراءة المجتمع الذي تحيا فيه، والذي أنتج بدوره الاتجاه التأريخي السائد، فالموضوع برمته بحاجة إلى قراءة سوسيولوجية تفكيكية جديدة؛ تلقي الضوء على المجتمع بمدخلاته ومخرجاته كافة، وما بينهما، وذلك لتفكيك وتحليل الرموز الثقافية المنتجة للمعتقدات والقيم كافة التي أفرزت، بدورها، هذا الشكل للمرأة في التاريخ.

ولذلك، فإن هذه الورقة لن تأخذ منحى الدراسات التي سبقتها، وآلياتها، وأطرها النظرية على اختلافها، وبالتالي لن يكون هناك مجال لحشد المساعي والجهود لإثبات الدور النضالي للمرأة الفلسطينية في تاريخ قضيتها، بل إن ما سيكون هو محاولة تأريخية جديدة، ترتكز على قراءة مختلفة للمرأة في المجتمع، وهنا المرأة الفلسطينية، ترى أن الفعل النضالي لا تتحدد قيمته بالفعل ذاته، وإنما عبر تغيير رؤيتنا لهذا الفعل وإزاحتها، وذلك انطلاقاً من قناعتنا بعدم إمكانية فصل تاريخ المرأة عن تاريخ الرجل، ولا حتى عن التاريخ العام، ولكن ما نحتاج إليه هو: تأريخ جديد لدور المرأة في المجتمع، لنقد الأفكار المسبقة عن تواريخ النساء التي لطالما تم حصرها ضمن قوالب وتصورات ثابتة.

ولن يكون هنا مجال لنقاش البديهي وتأكيد الثابت، بل سيكون إعادة قراءة وإنتاج لما هو موجود، ليأخذ ويحتل مكانه المناسب في العملية التأريخية برمتها، لذلك سنتجه في قراءتنا الجديدة إلى تحليل عدد من الشهادات النسائية الشفوية التاريخية لدورها الاجتماعي، كمحاولة تفكيكية للمنطقة الواقعة ما بين الأشكال النضالية النسائية الفلسطينية، والقيم الاجتماعية التي ساهمت في تقسيم الأدوار الاجتماعية للأفراد، وبناء مضمون هذه الأدوار، وبالتالي ما سينتج هو خلق رؤية وإحساس جديد بالفعل، وليس إثباته.

وانطلاقاً من قناعة ترى أن الكاريكاتير مصدر تأريخي يضاهي المصادر الرئيسية في أهميته، سيتم تحليل الدور النضالي للمرأة الفلسطينية كما صورتها رسومات الفنان الفلسطيني ناجي العلي، تلك الرسومات الأكثر تجسيداً وصدقاً في تصوير الشارع الفلسطيني، بما يحمله من قيم ومعتقدات ورؤى متباينة.

تأريخ رسومات ناجي العلي للدور النضالي النسائي الفلسطيني

«مهمة العنوان أن يشوش على الأفكار لا أن يقولها»

لا نسعى هنا إلى مناقضة أنفسنا عبر مساهمة هذه الدراسة -حتى ولو سهواً- في عملية العزل السائدة للأدوار النسائية المختلفة، وقراءتها ضمن قوالبها الثابتة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا بد من التأكيد على وعينا بالمأزق والتحدي اللذين تضعهما أمامنا هذه الرسومات،

كونها ذكورية المصدر، إن صح التعبير، ما سيجعلها في النهاية امتداداً للثقافة الاجتماعية الذكورية السائدة في مجمل العملية التأريخية، ولكن ثقتنا الكاملة والمطلقة برسومات ناجي العلي وعبقريته التأريخية لمجتمع المهمشين، جعلنا نتجاوز هذه الإشكالية، مؤكدين على أن هذه الرسومات الاستثنائية لفنان استثنائي تجاوز الجندر إلى العبقرية التي لا تفرق بين الذكر والأنثى، هي بالتأكيد رسومات تحمل مساحات شاسعة لقراءات لا يمكن استنفاد إمكانياتها.

لطالما لم تُؤخذ الرسومات الكاريكاتيرية على محمل الجد، كغيرها من المصادر التي هُمشت؛ كمصدر رئيسي في العملية التأريخية للدور النضالي للمرأة الفلسطينية -وحتى في العملية التأريخية بأكملها- حيث تركز الاهتمام على مصادر التأريخ العامة المتعارف عليها من وثائق رسمية وغيرها من المصادر شائعة الاستخدام. أما في الآونة الأخيرة، فقد تم التركيز على الاتجاه الشفوي في التأريخ، كرواية تاريخية جديدة، في ظل غياب واضح لإمكانية رؤيته كأداة تأريخية مختلفة، حيث تم جمع أكبر عدد من المواد التاريخية المروية شفوياً من قبل النساء، وهنا ليس لتوظيف تلك الروايات في إعادة كتابة التاريخ بحضور نسوي أقوى وأكبر، بل تم استغلالها لإثبات الدور النضالي المفترض للنساء الفلسطينيات في تاريخ القضية النضالي.

عودة إلى رسومات ناجي العلي، ومن خلال الاطلاع عليها وبناء العديد من المساقات التربوية المتعلقة بالتاريخ والتأريخ وما بينهما مع المعلمين، تشكلت رؤية تعتبر تلك الرسومات مصدراً أساسياً ومهماً من مصادر التاريخ، لذلك ارتأيت أن تكون جزءاً من هذه الدراسة؛ عبر قراءة الصورة التي اتخذتها المرأة الفلسطينية داخلها وتفكيكها تحليلها، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته -وما زالت- على مدار تاريخ القضية كما عبرت عنها هذه الرسومات.

ولا بد من التنويه إلى أن رسومات ناجي العلي لطالما جسدت رأي الطبقة التابعة والمهمّشة من المجتمع الفلسطيني بأطيافه وتشكيلاته الاجتماعية كافة، مجسدةً لمعظم القيم والمفاهيم والرؤى التي يكونها اتجاه معظم القضايا السياسية التي يمر بها، ومن هنا جاءت أهمية الاطّلاع عليها؛ بهدف إعادة قراءة الدور النسوي الفلسطيني السياسي والنضالي، كمحاولة في خلق قراءة مختلفة، وتكوين صورة جديدة من زاوية التقاط مختلفة.

سنركز في هذا الجزء على شخصية «فاطمة» -كإحدى الشخصيات الرئيسية في رسومات ناجي العلي- كونها اختزلت المرأة الفلسطينية، وتمثلت أدوارها في المجتمع والنضال والتاريخ، فكانت في رسومات ناجي العلي؛ الفلسطينية المرأة المناضلة، وبالتالي لن تؤخذ هذه الرسومات دليل إثبات لأنفسنا أو لغيرنا؛ على أن المرأة الفلسطينية قد لعبت دوراً محورياً ومركزياً في النضال الفلسطيني؛ بل ستُؤخذ هذه الرسومات بهدف خلق قراءة جديدة لهذا الدور الذي لا يراودنا أدنى الشكوك ببديهيته أو ثبوتيته.

فاطمة كانت دائمة الحضور المُلح في رسومات ناجي العلي، مؤدية دورها النضالي بما ينسجم ويتناغم مع دورها الاجتماعي -وهذه نقطة لا نستطيع إلا أخذها بعين الاعتبار- وقد مثلت في معظم هذه الرسومات دوراً مركزياً ومحورياً؛ معبرة عن رأيها ووجهة نظرها اتجاه كل القضايا المستجدة على الساحة النضالية الفلسطينية، مقاومة عندما تجب المقاومة؛ بما ينسجم مع دورها وإمكانياتها المتاحة اجتماعياً، والمرتبطة مع باقي أدوار أفراد المجتمع.

وليس ضمن واجبها في هذه المرحلة من الصيرورة الهوياتية أن تثبت هذه الأدوار، فأشكلة هذه الورقة تتجلى في «**ضرورة إعادة وجهة نظر التاريخ والتأريخ من الفعل النضالي، فالفعل النضالي لا تتحدد قيمته بذاتية الفعل، بل من خلال الكيفية التي يرى فيها المجتمع هذا الفعل**»؛ فما نسعى إليه في هذه الفترة، هو إعادة صناعة التاريخ وكتابته من زاوية تأريخية جديدة، تستطيع الترويج لهذا الدور المهمش، من خلال إعادة قلب تراتبية المهم وغير المهم في الصناعة التاريخية المحكومة بالتوجهات الثقافية والاجتماعية.

في هذا الجزء من هذه الورقة؛ سيتم اختيار خمسة رسومات لناجي العلي، على أن تكون فاطمة والفتاة الفلسطينية أحد شخوصها الرئيسية؛ وذلك لإلقاء نظرة تفكيكية تحليلية على هذا الدور النضالي للمرأة الفلسطينية، وما قامت الرسومات بتأريخه، وما هو ملفت للنظر أن ناجي العلي كان قد أرّخ لدور المرأة الفلسطينية النضالي، عبر أسلوب يحمل حساً عالياً بانسجام الدور النضالي مع الاجتماعي، بحيث أن هذا الدور النضالي لم يكن خروجاً وتجاوزاً لهذا الدور، بل منسجماً معه، ما يؤكد على أن الإشكالية التي تواجهها المرأة، ليست إشكالية نضالية بل إشكالية تأريخية تقييمية للفعل النضالي النسوي، ساهم في تهميش المرأة وأدوارها، مركزاً على الأدوار الذكورية، محكوماً بنظرة تقييمية مختلفة.

قراءة عابرة في رسومات خالدة

المشهد الأول:

«وكان جسمك مسبياً وكان دمي . . يلهو بقطرة شهد فوق وحل يدي»*

لا شك في أن الصورة تمتلك فضاءات لا متناهية من التأويل والقراءات المختلفة، لذلك اختارت عبقرية ناجي العلي في هذا المشهد فتح أبواب

هذه التأويلات على اتساعها بتغييب الكلمات؛ فهنا يختزل الوطن بأكمله بامرأة فلسطينية، فالتاريخ والقضية الفلسطينية بأكملهما؛ امرأة فلسطينية واحدة قادرة على تجسيدهما بحضورها وعوالم هذا الحضور، فليست «جفرا» فقط من تختزل كامل الحكاية الفلسطينية، بل تحمل هذه الصورة تأكيداً بامتلاك المرأة الفلسطينية مفاتيح إرث الحكاية الفلسطينية، فاختصار كامل الحكاية الفلسطينية وهمها بامرأة فلسطينية لم يأت من باب الصدفة في رسومات ناجي العلي، بل كنوع من الاعتراف والتأريخ للدور الذي لطالما مثلته المرأة الفلسطينية بالنسبة للمشروع الوطني الفلسطيني في مراحله ومفاصله الأساسية كافة. وهو إشارة مباشرة إلى أن اختلاف الدور لا يقلل من أهميته أو قيمته؛ بل هو آلية للتكامل والانسجام، وهذا ما جسدته رسومات ناجي العلي في عرضها للأدوار النسائية النضالية على اختلافاتها.

المشهد الثاني:

لا شك في أن هذه الصورة وبمحاكاتها للوحة «جبل المحامل» التي رسمت في سبعينيات القرن الماضي، والتي عبرت في حينها عن شكل جديد من العلاقة المكانية بين الفلسطيني والأرض، عبر تجسيدها لصورة العتّال الفلسطيني الطاعن في السن، حاملاً الأقصى على كتفيه، بنموذج آخر تظهر فيه المرأة الفلسطينية مكان الرجل هذه المرة، معبرة عن تلك العلاقة الجديدة بين الفلسطيني والهوية المكانية، وهي نقلة نوعية من حيث ضرورة إعادة النظر في الرؤية الهامشية للدور النسائي الفلسطيني النضالي.

المشهد الثالث:

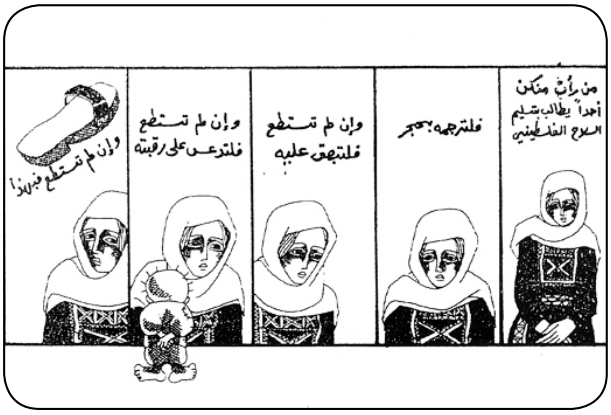

تحمل هذه اللوحة رمزية عالية تشير إلى خصوصية الدور النضالي النسوي، ودرجة تداخله وتشابكه في بعض المعطيات الاجتماعية المحيطة بها، فبلورة دور المرأة الاجتماعي، وبما في ذلك النضالي، قد تأثر بطبيعة الدور الممنوح لها اجتماعياً. وعلى الرغم من ذلك، استطاع ناجي العلي أن يرى التمايز في الدور، مقابل عدم التقليل من أهميته، ولم يقم بتهميشه كما كتب التاريخ العامة، بل استطاع أن يؤكد على تكاملية هذا الاختلاف، وهذا ما نراه متجسداً في رسوماته، لذلك قد تكون المرأة الفلسطينية لا تحمل السلاح التقليدي أو السلاح المتعارف عليه عرفياً، ولا تنزل إلى ساحة القتال؛ لكنها -على الرغم من ذلك- لم تفقد دورها النضالي كما روجت له الكتابات التاريخية المختلفة.

المشهد الرابع:

هي «فاطمة» التي ما زالت إلى جانب زوجها كفاعلة وليست كمُتلقية، وزوجها جسد الرجل الفلسطيني المهموم بقضيته حد التخمة، حاملة وعيها الكامل وآراءها الواضحة والخاصة والمتكاملة للموضوع، عبر زاوية رؤية مستقلة، وذلك لما وعته حول قضيتها، ولكن بشكل مختلف وخاص بها، فالرجل في معظم هذه الرسومات لطالما كان ضعيفاً ومقهوراً ومهموماً، وفاطمة لطالما كانت الأشجع بكل المقاييس، غير المهادنة، التي لا تحيد عن الحلم والهدف، لاعبة دور المرشدة والفاعلة والموجهة بامتياز.

المشهد الخامس:

ففي الوقت الذي ضاعت فيه القضية عبر دهاليز السياسة والدبلوماسية، ما زالت فاطمة الحارسة الحقيقية للقضية، وليس هذا فحسب، بل توجه زوجها الذي قد شارف على الضياع في هذه الدهاليز، فعلى الرغم من بساطتها الظاهرة؛ فإنها ما زالت واعية للمستجدات والمتغيرات السياسية كافة، ومعبرة عن رأيها بوضوح اتجاه كل هذه المستجدات، وهنا يفتح المجال لما هو أبعد، فالتغييب التاريخي للمرأة الفلسطينية هو تغييب جزء كبير من الذاكرة الاجتماعية الفلسطينية، وليس هذا فحسب، بل مساهمة في خلق رواية فلسطينية منقوصة، ولا ترتقي حتى إلى مشارف الصراع مع الرواية المضادة -إن صح التعبير.

كلمة أخيرة لا بد من كتابتها حول هذه الرسومات، فعلى الرغم من قدرتها على استحضار المئات من الكتب التاريخية؛ فإنها أيضاً، وفي نظرة عابرة إلى عمقها، نرى ذلك التلميح المستمر إلى أن مؤرخ القضية وحكايتها هي المرأة الفلسطينية بالدرجة الأولى، فهي أرشيف القضية، ولا بد من إعادة نظر حقيقية في الآليات الثقافية والاجتماعية التي تحكم عملية الكتابة التاريخية، والعواقب المترتبة على هذا التهميش المستمر للتواجد النسوي الفلسطيني في التاريخ النضالي، والصورة المشوهة غير المتوازنة والمنقوصة التي سيخلفها حول القضية الوطنية.

قراءة في بعض الشهادات الشفوية لنساء فلسطينيات

ما سيتم في هذا الجزء هو اعتماد عدد من الشهادات الشفوية لبعض النساء الفلسطينيات؛ تصف بعض الأدوار التي قمن بها، في إحدى فترات التاريخ النضالي الفلسطيني، وقد تم اعتماد هذه الشهادات من كتابيْ فيحاء عبد الهادي، حيث يتناول الأول «أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات: المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية»؛ والثاني بعنوان «أدوار المرأة الفلسطينية في الأربعينيات: المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية»، وقد احتوى الكتابان على عدد كبير من الشهادات الشفوية لنساء فلسطينيات، يروين خلالها رؤيتهن لشكل الأدوار السياسية والنضالية التي قمن بها، فما سنلاحظه في هذه الشهادات هو انسجام وتداخل وأحياناً تلاحم، ما بين الدور الاجتماعي للمرأة الفلسطينية ودورها النضالي.

الدور الأول:

- تتحدث الراوية كاملة شنيك، عن عملها، وعمل فاطمة الخليل:
«آه والله، بقيت على الصاج أخبز، لما بقى الطابون مع حده ييجي يقول لي: إعجني وإخبزي على الصاج، بدهم هلقيت يوخذوا أكل للثوار، هاظهم غربه، وأعجن عجين عويص، وأخبزه على الصاج، الطابون يبقى موش حامي واللاموش مدعك واللا إشي، وأعطيهم اياه. كله إللي أخبزه. ويروح الزلمة يجيب بيض ويجيب حلاوة ويجيب سردين ويجيب هذا ويحط لها ويحط لهم ويروحوا يودوا. فاطمة الخليل بقت تودي، أنا بقيتش أطلع. مش بس أنا، كل حارتنا كل البلد كل الناس بقوا يجهزوا. دار أبو الجمال بقوا دار حمودة يجهزوا، وها الناس اللي بقوا قريبين علينا، يقولوا: هاتوا من دار فلان، هاتوا من دار فلان، يملوا هالجونة وتزمها فاطمة الخليل».

أما لطيفة محمود درباس، من بلعا/ طولكرم، فتتحدث بالتفصيل عن هذا الدور:
«نطلع نودي أكل للثوار، نطلع نوخذ المي ونوخذ الأكل للثوار، يتغذوا وينتقلوا من جبل لجبل. يلاقونا الجيش، وين رايحين؟ نقول لهم: رايحين إحنا عالمشحرة نقول عن المشحرة، مفحمة نعمل فحم، إحنا رايحين نطفي فحم بالمي إللي على روسنا، ننزل هناك، نسحب حالنا ونروح. تاني يوم مثلاً عند الثوار، بدك تنقلي من جبل لجبل يعملو لنا حزم صغار، نحط البارودة بقلبهن، ونحملهن على روسنا، مشان ينطوا الثوار التانيين.
حزام إيش هادا حزام؟ حزام حطب، نحط الحطب، ونحط البارودة بقلبها البارودة، خشب بقى إيدها خشب، ونحطه بقلبها، نحمل الحزمة، ونروح ننقلها على تاني مطرح، يعني نتنقل مع الثوار من هون لهون، الجبل هاظ للجبل هاظ، بعدها كان إحنا معزبين بالغنم بأم الدرج، إلي ابن عمه اسمه راغب درباس، هاظا بقا قايد الثورة الشمالية، أبو رده بقولوا له: أحمد أبو رده، مع أخوي هو وإياهم، نسحب حالنا ونروح نودي الأكل ونودي الشرب».[1]

فالنضال وأدواره المختلفة هي تكاملية بالأساس؛ فالمرأة الفلسطينية واعية لاختلاف دورها، كما هي واعية أيضاً لأهميته، فحمل السلاح كما تحضير الطعام للثوار لا يقل كلاهما أهمية عن الآخر، هذا بالإضافة إلى معرفتها بما تملك من قدرات وإمكانيات؛ من حيث سهولة التنقل أكثر من الرجال؛ واستغلالها لهذه القدرات والإمكانيات من أجل القيام بدورها النضالي المنسجم والمتناغم مع موقعها ودورها الاجتماعي، حيث انقسم دورها في هذه الشهادة إلى ثلاثة أقسام مرتبطة ومعتمدة على بعضها البعض، فهي تجهز الطعام والماء للثوار، وتقوم بتوصيله لهم في مواقعهم نظراً لسهولة حركتها وتنقلها، هذا بالإضافة إلى مسؤوليتها المنزلية ومقدرتها على أن تستفيد من ذلك في إنجاز عملها ودورها النضالي في تهريب وتوصيل السلاح للثوار.

فالمرأة الفلسطينية لطالما رافقت الثوار إلى معسكراتهم؛ ولكن ليس للإقامة فيها؛ وإنما لإيصال الإمدادات المادية والمعنوية؛ التي تشكل جزءاً أساسياً من العمل الثوري النضالي.

الدور الثاني:

«دور المرأة إنه الشجاعة أمام العمل الفدائي، عندما يستشهد الابن تطلع تزغرد ويجوا الناس يهنوها، وما كانت أداة لمنع الابن من المشاركة في النضال، بالعكس، يعني كانت على الأقل على الأقل تقبل إنه يحمل بندقية ويطلع يقاتل ويرجع ع البيت. كانت مشجعة، أو على الأقل إذا مشجعة أو غير مشجعة بس قابلة به، وإذا استشهد، متل ما عم بقول لك يعني: كان عمل عظيم يعني».[2]

يبدو جلياً في هذه الشهادة ما قصدناه عندما قلنا إن الدور النضالي للمرأة الفلسطينية هو متكامل مع دورها الاجتماعي، ومع باقي أدوار أفراد المجتمع من الذكور، ولكن الإشكالية لطالما تجسدت في التقييمات الاجتماعية لهذه الأدوار، ما ساهم في تبئير بعضها وتهميش بعضها الآخر.

وقد تجاوز هذا العمل الدور التحريضي وحشد الطاقات للثورة، إلى الدور النضالي المباشر، فليس الأهم إطلاق شرارة الثورة، بل جمع الحشود لهذه الثورة، ما يجعل هذا الدور يتجاوز العمل الثوري المباشر أهمية وصعوبة.

من هنا لا بد قبل الحديث عن الدور النضالي للمرأة الفلسطينية، تفهم هذا الدور ومحاورته، وليس فقط الالتجاء إلى إثباته ونفيه، ما يسخّفه ويحيله إلى مجرد دور سطحي، كما تفعل المصادر التاريخية العامة وغيرها، فلا بد من فهم المجتمع والخطاب الاجتماعي الذي نتحدث عنه، وتحليل دور المرأة وتفكيكه، والاقتناع بضرورة النظر إلى الدور النضالي للمرأة الفلسطينية كدور منسجم ومتداخل مع باقي أدوارها الاجتماعية.

الدور الثالث:

«كل أكم يوم كانوا يجوا يكبسوا البيت. كان عنده (الزوج) مسدس، لما أسمع إنهم يعني يخبطوا وإيشي أعرف التخبيط تاعهم أربطه على وسطي. وألبس فوقه الدشداشة .. ثلاث أربع مرات تخبي هذا المسدس».[3]

في أدق تفاصيل النضال الوطني كانت المرأة الفلسطينية مشاركة ومساهمة، ولم تغفل عنها مرحلة أو دور في الثورة إلا وكانت هناك، وهذا ليس من باب إثبات ذلك، بل من باب إنكار الرؤى التي لم تعرف إلا شكلاً واحداً ومنمطاً للثورة والعمل الثوري، ولم يعلموا أن العمل النضالي هو عمل مهمات، ولكل مهمته حسب موقعه ودوره المختلف، لذلك كان التأريخ لشكل نضالي واحد، محولاً إياه إلى عمل مجزوء من سياقه، وغير مكتمل في كثير من الأحيان، فالمرأة صراعها الوحيد ليس في إثبات دورها النضالي، بل إن صراعها الحقيقي هو مع التأريخ كعملية، والخطاب الذي يقف وراء هذه العملية التأريخية، كونها عملية اجتماعية بالكامل؛ ساهمت في تهميش المرأة وأدوارها، وهذا ليس من باب انتفاء القيمة أو حتى انتفاء العمل النضالي، بل من باب توجه مباشر في إقصاء أدوار المرأة من عملية التأريخ، ما ساهم حتى في تشويه العمل النضالي المؤرخ.

الدور الرابع:

«أنا تعلمت على الستن والله الستن والتمجن هذه القنبلة اللي هلقدة تعلمت عليها. تقولي فيها هيك «لفت إيدها» وترميها بعجلة مطرح ما بترميها، يعني والله اليوم ما بعرف! البارودة ما قدرتش البارودة ما قدرتش أزمها، يوخذني أخوي أبو علي يعلمني عليها تسقط من ايدي. أما التمجن مشطرني فيها، وإلا الفرد الكبير اللي بيوخذ ما بدري كم حبة يم رشاش زي رشاش توتوتو تعلمت عليه أنا (ضحكت).»[4]

«بقى يعلمني على الستن، بقيت أطخ على الستن، آه، استن هذا الحديدي، حديد كله مش زي ستات اليوم! آه بقى يعلمني عليه، يحط لي حجر ويقولي: طخي. فأنا كنت أقول: يا مسخم، أنا بقدر أطخ على حجر؟! يقول لي: طخي. المهم هذا اللي كان يحدث معنا في البلد. اللي كنا نعمله نساعدهم، إلّي شاطرة المرة الفصيحة إلّي دايرة بالها تمسح البارودة، وتعبيها وتحضرها لجوزها. تساعده ينام، تسوي له كاسة شاي. لمن يقعد تدير بالها عليه. هذا إلّي كنا نقدر نعمله في البلد».

فالمرأة الجيدة هي التي كانت «تمسح البارودة وتعبيها وتحضرها لجوزها تساعده ينام» لم نجد دوراً متكاملاً كما هذا الدور، ففي هذا المشهد الدور هو تكاملي بامتياز، ومتسلسل في الأداء والتقسيم، ويعزز وعي المرأة الفلسطينية لهذه المعادلة، فنجد أنها تدربت على استخدام وحمل السلاح في الوقت المناسب، ولكنها واعية لدورها وعمقه وتكامليته بالنسبة لدور الرجل، ولكن قراءة هذا الدور وتحليله وتجاهله هو الذي شوهه على مر التاريخ، ويعود هذا في الخلل الذي رافق قراءة هذا الدور.

الدور الخامس:

«إيه، قادرين نعمل على قدر إمكانياتنا، كيف يعني؟ بمساعدة الرجل، هو للثورة ونحنا للعمل الاجتماعي والعمل الثقافي والعمل الخيري، عرفت كيف؟! لهيك يعني قدرنا نتعاون نحنا والرجال، كثير تعاونا، كنا يد واحدة، أيوه. بالأربعينات كانوا النساء كثير يشاركوا بالمؤتمرات، وكانوا يحسوا بحماسة وبقدرة عالية، يمكن، انه قادرين يعملوا شي».[5]

لم ينحصر الخلل فقط في قراءة الدور، بل إنه امتد ليصبح في تأريخه، وكيفية تعاطي السجلات التاريخية معه، فلا بد في هذه الورقة من الفصل ما بين حقيقة العمل النضالي للمرأة الفلسطينية، والشكل الذي تمت فيه قراءة هذا الدور وتدوينه وتأريخه، بالتالي يجب على الدراسات النسوية أن تعيد تشكيل آلية فهم هذا الدور، وليس السعي وراء تأكيده ووجوده، ومن خلال هذه الشهادات؛ نؤكد أن المرأة الفلسطينية لطالما وعيت لدورها، وضرورة انسجامه مع دورها الاجتماعي، وبالتالي تكامليته مع دور الرجل الفلسطيني النضالي، ما جعلها ترتقي كما الرجل إلى ذات المرتبة في دورها النضالي، ولكن ما تم لاحقاً من إعادة قراءة وتأويل وتحليل وفهم لهذا الدور؛ هو ما ساهم في ظهور هذه الإشكاليات العديدة، كغياب جوهر الموضوع من مركز النقاش، والعمل على انزياح النقاش إلى أماكن لا تحمل إمكانية ولا استعداداً للنقاش فيها، أو الأخذ والعطاء حولها؛ لما سيفقدها من قيمتها وأهميتها ويحولها إلى مجرد مواضيع ابتذلت لكثرة تداولها.

«إن العدالة لا تكترث للعجلة، ولعدالة الله متسع من الوقت»

ما سعت إليه هذه الورقة وبكل قوة، هو دفع اتجاه الرؤية إلى زاوية مختلفة ومغايرة فيما يتعلق بموضوع المرأة الفلسطينية، وتاريخها النضالي، وآلية العملية التأريخية لهذا الدور، كما حاولت على بساطتها تفكيك الخطابات السائدة فيما يتعلق بالمرأة، وأدوارها المختلفة بما فيها النضالية، وذلك من خلال إعادة قراءة التأريخ؛ وتفكيك الأسباب التي وقفت وما زالت وراء تهميش المؤرخين للدور النسائي النضالي، وأخيراً فقد تمت إعادة تفكيك الأطر المؤسساتية التي تحاول إعادة الاعتبار للمرأة كأحد أفراد المجتمع، ما تطلب نقد أطرها الفكرية

المختلفة التي تعمق اتجاه رؤية هذا الموضوع.

وبناء على ذلك، اعتمدت هذه الورقة على مصدرين تاريخيين تسعى من خلالهما إلى إعادة تأريخ هذا الدور النسائي، هما الرسومات الكاريكاتورية للفنان الفلسطيني ناجي العلي، وبعض من الشهادات الشفوية لنساء فلسطينيات توضح الأدوار النضالية التي قامت بها المرأة الفلسطينية على مدى تاريخها النضالي، وذلك ليس بهدف إثبات أن للمرأة الفلسطينية دوراً ومساهمة نضالية، بل من أجل إعادة قراءة هذه الأدوار، وما ينتج عن ذلك من تفكيك وإزاحات جديدة لزوايا الرؤى السائدة فيما يتعلق بموضوع الورقة.

نسرين عواد – مركز القطان

الهوامش

* محمود درويش، قصيدة في البال أغنية.

[1] عبد الهادي، فيحاء (2005). **أدوار المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات: المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية**، رام الله– فلسطين: مركز المرأة الفلسطينية للدراسات والبحوث، ص: 33.

[2] المرجع السابق، ص: 37

[3] المرجع السابق، ص: 82.

[4] المرجع السابق: ص: 88.

[5] عبد الهادي، فيحاء (2005). **أدوار المرأة الفلسطينية في الأربعينيات: المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية**، رام الله– فلسطين: مركز دراسات المرأة للأبحاث والتوثيق، ص: 15.

أطفال مدرسة غزة للموسيقى في حصة تدريبية.